Issn:2572-0023

منهج الإصلاح ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط حركة المهدي بن تومرت (ت524هـ-1125م) أنموذجا

د/عبد القادر ربوح

جامعة زيان عاشور -الجلفة-

Dr.rabouhkader@gmail.com

الملخص:

أسفر التاريخ السياسي والاجتماعي في بلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة، حلقات متعاقبة من الحركات الإصلاحية التي قامت في المجتمع الإسلامي مبثوثة على مدى المكان والزمان، هادفة إلى التتريل الصحيح للحقيقة الإسلامية على واقع الساكنة، عامدة إلى إزالة مظاهر الفساد الطارئة على ذلك الواقع. ومن بين هذه التجارب الإصلاحية التي ظهرت في البيئة المغربية؛ نجد حركة المهدي بن تومرت المعروف بحركة الموحدين، التي وقعت في أوائل القرن السادس الهجري، وأثمرت دولة الموحدين كواحدة من أعظم الدول في التاريخ الإسلامي. ومنه تروم ورقتي البحثية إلى التعريف بهذه الحركة الإصلاحية التي قادها ابن تومرت، والركائز التي قامت عليها في محاولة لتغيير الوضع السياسي والديني لهذا الحيز الجغرافي الهام، كما بحثت الدراسة في مضامين التغيير سواء على المستوى العقدي وحتى الديني والسياسي، وكذا التعرف على أثر وصدى هذه التجربة الفريدة التي قادها واحد من أشهر رجالات التاريخ السياسي في بلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح، بلاد المغرب، العصر الوسيط، مهدي بن تومرت.

Summary

Political and social history in the Maghreb Islamic during the intermediate period resulted in a series of reformist movements that took place in the Muslim community throughout the time and place, aiming at the correct reduction of the Islamic reality on the reality of the population, aimed at removing the manifestations of corruption that is urgent to that reality. **A**mong these reformist experiments that have emerged in the magreb environment is the Mehdi Ben Toumert movement, known as the

Mouhaddin Movement, which took place and speed up in the early 6th century AH, and produced the Almohad state as one of the greatest nations in Islamic politic's history. From this, my research paper simplfid aims to introduce this religion and politic reform movement led by Ibn Tomart, and the foundations on which it was based, in an attempt to change the political and religious situation of this important geographical space. The study also examined the implications of change, both on the ideological and religious levels, the unique experience led by one of the most famous men of political history in the Maghreb in middle ages.

Les mots clés: Reform, Country of Morocco, Middle Ages, Mehdi Ben Toumer.

مقدمة:

نعثر في نطاق التاريخ السياسي والديني على محاولات إصلاحية قامت في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، تهدف إلى تلافي الفساد الذي يطرأ على سياسة دولة من الدول أو من أمير من الأمراء، وتروم تنزيل السياسة الشرعية التي مارسها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون منزلة الواقع (1) . ومن بين هذه التجارب الإصلاحية التي ظهرت في بلاد المغرب نجد دعوة المهدي بن تومرت المعروف بحركة الموحدين، التي وقعت في أوائل القرن 6هـ/12م، وأثمرت دولة الموحدين كواحدة من أعظم الدول في التاريخ الإسلامي(2) .كما أن دعوة ابن تومرت كان نصيبها من الدراسات النقدية الموضوعية قليل ولهذا خفي على كثير من المسلمين حقيقتها، لاسيما وقد سماها مؤسسها بدعوة الموحدين، ونسبوها إلى الصلاح والاستقامة، كما يظهر من تراثها الفكري، وتاريخ مؤسسها وداعيتها الأول محمد بن تومرت، وهذا ما دفعني إلى دراسة منهجه والأسس التي تقوم عليها حركته الإصلاحية، والتعرف على صدى الحركة محليا وعالميا على المستوى العقدي والسياسي. ومن هنا يتبادر ألينا طرح الإشكالية التالية: كيف تجسد منهج الإصلاح عند المهدي بن تومرت؟ وما صدى حركته على التوجه السياسي والعقدي في بلاد المغرب الوسيط؟

أولا- البيئة المغربية في عهد المرابطين قبل حركة الإصلاح

إن التفاعل بين الإنسان وبيئته تفاعل حيوي عميق، وجدلية التأثير والتأثر عنصر أصيل في الحياة، ولذلك فإن دراسة البيئة التي شهدت نشأة ابن تومرت ومستقبل أعماله تضحى أمراً أساسياً في فهم شخصيته وأفكاره وحركته. في هذا الإطار فان دراسة التجربة التغيرية التي قام بها المهدي بن تومرت تستلزم وقوفا متفحصا عند الواقع الذي كان مسرحا على لتلك التجربة يكشف عن العناصر المتشابكة في ذلك الواقع، ويصور حقيقة الوضع في صورته المختلفة، خاصة وأن المهدي كان قد عاش واقعه بعمق، وتفاعل معه تفاعلا شمل مختلف جوانبه السياسية والثقافية والاجتماعية ــ فكانت ثورته إفرازا لذلك التفاعل العميق، وكانت العلاقة بالتالي جد وطيدة بين الواقع وبين الثورة سواء على مستوى المقولات أو على مستوى المنهج(3) .

أ- الوضع السياسي:

كانت تحكم بلاد المغرب أوائل القرن 6ه /12م دولة المرابطين التي تأسست سنة 448ه/156م، وشمل نفوذها كامل المغرب الأقصى والأندلس، واستمرت دولة قائمة إلى أن أطاح بها الموحدون سنة 541ه/1147م(4). وقبل قيام هذه الدولة كانت المغرب تعيش فوضى سياسية بالغة وصفها ابن عذارى بقوله:" وكان أهل المغرب يتولون بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك الطوائف بالأندلس "، وكانت هذه الفوضى تتغذى بانحراف عقدي يصح بحق وصفه بالردة على المد الإسلامي الذي شمل المغرب في القرنين الأول والثاني للهجرة(5) .

ب- المجال السياسي والفكري

كان الفقهاء هم الذين يحددون الفكري للائمة فيجيزون ما يرونه صالحا، يمنعون ما يرونه فاسدا كما يبدو في إفتائهم بإحراق كتب الغزالي، كما كانت لهم أيضا الكلمة النافذة في الأمور الإدارية والحربية والسياسة الخارجية (6). إن هذا الطابع المميز لسياسة المرابطين

المتمثل في نزعة الجاه وسلطة الفقهاء هو الذي كان محققا للهدف الذي من اجله قامت الدولة وهو إقامة وحدة سياسية وعقدية بالمغرب، ولكن هذه الدولة لم تدم طويلا حيث لم يتجاوز عمرها قرنا من الزمن، وربما كان استبداد فئة معينة من الفقهاء بالسلطة أدى إلى نتائج سياسية واجتماعية كان لها الدور في انقراضها (7).

ج- الوضع الاجتماعي

يبدو أن ما حققته دولة المرابطين من توحيدي سياسي على أساس من الفقه المالكي لم يكن له بعد اجتماعي يستجيب بصفة مرضية للغاية الدينية في العدل ومكارم الأخلاق (8). فالنفوذ المطلق الذي كان للفقهاء أنشأ منهم طبقة محظوظة استأثرت إلى جانب الوجاهة بوافر المكاسب والأموال، وهو ما صوره صاحب المعجب إذ يقول: " عظم أمر الفقهاء، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك آمالهم، واتسعت مكاسبهم، وربما بلغ بعض الفقهاء من الترف مبلغا كبيرا كما يدل عليه وصف السلاوي لدار تطاول في بنائها أحدهم" (9). ويبدو إن مظاهر الخلاعة والمجون التي كانت متفشية بمدن الأندلس سرت عدواها إلى مدن المغرب بعد وحدة العدوتين، فكثرت بهذه المدن مظاهر الفساد ومجالس الخمر، وكان للعنصر النسائي دور مهم في ذلك وهو ما صوره المراكشي في قوله:" استولى النساء على الأحوال، واسند تأليبهن الأمور، وصارت كل امراة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور (10).

د- الوضع الثقافي

لم يعرف المغرب تنوعا مذهبيا في الفكر العقدي والشرعي كذلك التنوع الذي شهده المشرق، فهذه الأرض لم تكو ولودا للمذاهب، ولا منشطة لما يتساقط إليها من المشرق، عزوفا في كل ذلك عما ينشأ من كثرة المذاهب من اللجاجة والصخب، وإذا كان المد الخارجي قد وصل إلى المغرب متمثلا في الدولة التي أقامها الصفرية بسجلماسة سنة 140هـ، والمد الشيعي قد وصل إلى منطقة السوس متمثلا في الشيعة البجلية، والفكر الاعتزالي قد وصل إلى شمال

المغرب متمثلا في الفرقة الواصلية، فان هذه المذاهب لم يكن لها تأثير يذكر في عقيدة عامة الأمة، وسرعان ما آل أمرهما إلى الزوال؛ وما تلقاه المغاربة هي عقيدة السلف في العقيدة، ومذهب مالك في الفقه، وقد أدى إلى افتقار حركة الحوار التي يحدثها تكاثر المذاهب واحتكاكها يبعضها البعض إلى التشبث المفرط بهذين المذهبين والانغلاق عليهما ورفض ما سواهما في نطاق المذاهب أهل السنة نفسها (11). وقد أدى إلى هذا الانغلاق على الفقه المالكي إلى إيثار كتب الفروع المؤلفة في المذهب بعد مالك، والاكتفاء بها عن أصولها من آثار مالك نفسه بل الرجوع إلى أصولها من نصوص القران والحديث، فساد بذلك وستحكم منهج في الفكر الشرعي يقوم على التقليد باعتماد الأقوال والتفريعات التي أثرت عن إتباع مالك (12).

و لم يكن الفكر العقدي في العهد المرابطي أكثر انفتاحا من الفكر الشرعي بل كان متأثرا به في الاكتفاء بالصور التي أثرت عن السلف إقرارا للنصوص على ظواهرها، على نحو ما قرره مالك بن أنس بقوله: "الاستواء معلوم ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" ولهذا كانت المقاومة شديدة لعلم الكلام وأهله ، وهو ما صوره المراكشي بقوله: " ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام و كراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه"؛ وربما يكون من أسباب هذا لوضع ما وضعه المرابطون نصب أعينهم من هدف أساسي تمثل في تحقيق الوحدة ، تلك الوحدة التي ظنوا أنها لا تحقق إلا بهذا الضرب من الحيطة والتقليد (13).

ومما ورد في تحقيق المدارك أن القاضي عياضًا كان شديد التمسك بالسنة وأهلها، فكان من أولئك الذين أمروا بإحراق كتب الغزالي و لم يكن أسلوب الإحراق أسلوبًا سليمًا، ولعل الحل الذي كان يراه القاضي عياض في التعامل مع كتاب الإحياء كان الأسلوب الأمثل، فقد كان يقول: "لو اختصر هذا الكتاب واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان مفيدًا، "وهو موقف سليم يناقض ما ذهب إليه أحدهم وهو يؤرخ للقاضي عياض انطلاقًا من نص لابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب فقد ذكر أن عياضًا كان يرى وجوب إحراق كتاب الإحياء

للغزالي، وضخمت الدعاية السياسية الأمر بصورة مفضوحة وجعلت الغزالي يغضب لعداوة القاضي عياض مثلما غضب لعداوة المرابطين، وقيل أن المهدي هو الذي أمر بقتل عياض بعد أن ادعى عليه أنه يهودي، لأنه كان لا يخرج يوم السبت لكونه، كان يصنف كتاب الشفاء يوم السبت فقتله المهدي لأجل دعوة الغزالي (14).

يبدو مما تقدم أن الوضع الثقافي بالمغرب أوائل القرن 6هـ كان يتصف بخطيه في الفكر الشرعي والعقدي، ترفض المقارنة والنقد، وتنكب الحوار بين الوجهات المختلفة، وتبتعد عن التعامل المباشر مع في سبيل استخلاص رؤى تستجيب لمستجدات الأوضاع أثارا في كل ذلك الرؤى الشرعية والعقدية. لقد انتهى المهدي في تحليل الواقع المغربي إلى أن ما طرأ عليه من الفساد في ميادين مختلفة إنما أفضت إليه تصرفات ثلاث طوائف تعاونت على إشاعة الغي والفساد، وهي: طبقة الحكام من المرابطين، وطائفة العلماء الذين يستعملون في إنفاذ سياستهم، وطائفة المعينين لهم من المنافقين الانتهازيين من العامة والدهماء، قال المهدي: " هذه الطوائف الثلاث الذين شمروا وتجردوا لهدم الدين، وأمتته أعنى أهل التجسيم الملثمين والبرابر المفسدين، والمكارين المفسدين من الطلبة " (15).

ومن مظاهر الفساد ما درج عليه المرابطون من ابتزاز الأموال وأكلها بالباطل:" فإنهم استباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واخذ أموال اليتامى والأرامل، وترك الفواحش والمغارم، وتمالوا كلهم عن ذلك، وتعاونوا عليه فرحين مسرورين، لا ناهي ولا منتهي، يجمعون الحرام، ويتمتعون بالسحت" (16). ونتيجة لجمع الأموال الطائلة فإنهم اعتادوا الإسراف والتبذير في اللذيذ من الطعام، والرقيق من الثياب، والخيل المسومة، وغير ذلك مما عَلُم من أباطيلهم وجورهم وفسادهم في الأرض " (17).

بسبب هذه الأفعال التي اقترفها المرابطون تبين للناس ما هم عليه من تبديل الدين وعكس الأمور وإيثار العناد والطغيان على العدل والإحسان، وإيثار الاستنكاف والاستكبار على الاستسلام للأمر والانقياد للحكم، وإيثار الفساد في الأرض على الإصلاح فيها، وقطع

ما أمر الله بأن يوصل من حسن الزاد وحسن الاستعداد للمعاد..." [18]. إن هذه الانحرافات من قبل المرابطين، جعلتهم يتركون دينهم واعرضوا عن آخرته، واستكبروا عن أشغالهم وصناعئهم، وتفرغوا لهلاك المسلمين والاعتداء عليهم، مكن الله منهم، واستحلوا الحرام حتى صار مطعمهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم ومركبهم، واستحلوا ذلك كله فزادوا به كفرا على تجسيمهم" [19] ص83 **التجربة.**

إن المهدي إذ كان قد وفق في تقويم واقعه بما تفطن اليه من عيوب ومفاسد حقيقية في البيئة المغربية نتيجة احتكاكه الدؤوب مع ذلك الواقع، فان عنصر المبالغة الذي اشتمل عليه تقويمه سيكون له الأثر السيء في الأساليب التي اتخذها لمقاومة الفساد وإزالته [20]. لم يكن الأمر يتعلق بتمرد عسكري، أو بثورة قبلية ترمي إلى الإطاحة بأسرة حاكمة وإحلال أخرى محلها تحت نفس الغطاء الإيديولوجي أو بدون غطاء. كلا، لقد كانت الثورة الموحدية فكرية المنطلق، إيديولوجية المسعى. لقد بدأت بفرد واحد "متوحد" هو المهدي بن تومرت الذي عرف كيف "يتدبر" ويستقطب الأتباع والأشياع، واحدًا واحدًا على أساس الولاء الفكري لدعوته ومن هؤلاء كون المهدي بن تومرت الجماعة السياسية، العسكرية التي انطلق بها للإطاحة بدولة المرابطين، الدولة التي كان يحارب فيها "الجهل" و" التجسيم" و"التقليد" وكل مظاهر التزمت الفكري والجمود العقلي [21].

ثانيا– المكون الديني في شخصية المهدي

لقد كانت شخصية ابن تومرت شخصية فذة، متميزة المعالم تتقوم بخصائص ذاتية، نسجتها عوامل حياته الثرية بالأحداث، وتضافرت في بنائها الظروف التي تقلبت فيها تلك الحياة، فأسهمت بيئته الجبلية ببذر الجدية والحذر، وأسهمت رحلته المشرقية برصيده العلمي، ونضجه الفكري، وإيمانه العميق بالإصلاح، انطلاقا من الواقع المغربي السياسي والاجتماعي، ولد له بذلك التفاعل خصالا قيادية أنضجتها التجربة في الدعوة للإصلاح [22].

أ) الرحلات العلمية

تنوعت رحلات المغاربة نحو المشرق بتنوع أهدافها ومقاصدها وتعددت بتعدد أسبابها وحوافزها، مما أدى إلى إنشاء رابط قوي ومتين بين ثقافة ومجتمع المغرب والمشرق ولهذا تكمن أهمية الرحلات في كونها تمثل مظهرا من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، فنجدها قد فتحت الآفاق واستقصت العادات البشرية، واحتضنت القوافل التجارية، ودونت فنون المجالس العلمية، واقتحمت الحدود السياسية، وطرقت أبواب الطرق الدينية، ورسمت حدود الخرائط الجغرافية لمختلف الأقطار الإسلامية. فقد درس ابن تومرت أول مرة في بلده ثم في مراكش [23]، ولما بلغ سن الشباب حاز في نفسه الارتحال إلى المشرق لطلب العلم، فبدأت رحلته بجوازه عل الأندلس سنة 501هـ/1107م فاخذ العم بقرطبة، ومنها رحل إلى المشرق عن طريق البحر، فحل بالسكندرية ثم توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعدها رحل إلى بغداد ثم عاد إلى بلاد المغرب سنة 510هـ/1116م [24].

وقد أخذ ابن تومرت في رحلته تلك مجموعة من العلماء من بينهم أبي بكر الطرطوشي وأبي بكر الشاشي الذي درس عليه أصول الفقه وأصول الدين، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيرهم [25]. وتذكر بعض الروايات أن ابن تومرت لقي أبي حامد الغزالي ، ودرس عليه في بغداد ، وقيل لقيه في بلاد الشام أيام تزهده، وهناك شك كبير يقوم حول هذا اللقاء ، فالمراكشي يقول في المعجب: "وقيل انه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده فالله اعلم " [26]، وابن خلدون يقول في العبر:" ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي" [27]، مما يشعر بشك في هذا اللقاء ، وابن خلكان في وفيات الأعيان، يؤكد أنهما التقيا بالعراق، وليس في الشام [28]، كما ذهب إلى ذلك المراكشي: " رحل إلى المشرق في شبيبته طاليا للعلم ، فانتهى إلى العراق، واجتمع بابي حامد الغزالي ..."، ويؤكد أن هذا اللقاء قد تم على النحو التالي: "كان ابن تومرت حاضرا لمجلس الغزالي في الشام، وروي له ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب، من إحراقها وإفسادها "، ابن تومرت حاضرا في ذلك المجلس فقال الغزالي حين

بلغه ذلك ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده، وما احسب المتولي لذلك إلا حاضرا مجلسنا "[29]، وفي ذلك تورد الرواية الموحدية رمزا لم يكن واقعا أن يكون الإمام الغزالي قد أجاز [30] تلميذه ابن تومرت الفقيه السوسي قبل سنة 505هـ/1111م في الثأر لذلك العمل الهمجي الذي قامت به دولة المرابطين ضد مشروع تجديد الإسلام الذي كان يعده الإمام، فكانت تلك الإجازة بمثابة المحرك لقيام المهدي بحركة التوحيد والدعوة للمذهب الجديد [31].

وبالرغم من هذا فان جولد تسهير يلغي فكرة اللقاء الشخصي بين المهدي والغزالي، وينتهي من بحثه إلى هذه النتيجة " علينا إن نلغي من تاريخ حياة ابن تومرت واقعة لقاءه مع الغزالي[32]، وذلك أن رحلة الغزالي التي زعموا أن ابن تومرت قابله أثناءها، وهي الرحلة المعروفة التي اعتزل فيها الناس، وسلك سبيل التصوف واستمر عشر سنوات ابتداء من عام 488هـ/1095م حتى عام 499هـ/1105م، رحل فيها عن بغداد عام 488هـ/1095م وزار أثناءها بيت المقدس ومكة ومصر لا تتفق في تواريخها مع رحلة ابن تومرت إلى المشرق، وهذه الرحلة التي بدأت عام 501هـ/1107م، ويتساءل جولد كيف يكون اللقاء قد تم في بغداد أو في دمشق والغزالي قد نرك بغداد عام 488هـ/1095م، وترك دمشق عام 490هـ/1097م[33] .

وأيما كان كون من الأمر، فالمهم أن ابن تومرت قد تأثر بتعاليم الغزالي في الكلام على الخصوص، متبنيا الكثير من آراء الاشاعرة مستحسنا طريقتهم في الانتصار للعقائد الدينية، بالحجج العقلية وفي تأويل المتشابهات، وأن برحلته هذه استكمل مرحلة طلب العلم، حيث يصفه ابن خلدون: " بأنه عاد إلى المشرق بحرا متدفقا من العم وشهابا وإربا من الدين، وصار على درجة عالية من علم الكلام والعلوم الشرعية، فقد رأى عن كتب أقطاب الفكرية من الظاهرية والمعتزلة والشيعة، وحضر مناقشاهم وندواهم، وبذلك تبلورت أرائه وأفكاره[34] .

ومع رحلة العودة تبدأ المرحلة الثانية من حياة ابن تومرت، هي مرحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الإسكندرية اندفع في تنفيذ أوامر الله بصد المنكرات، ومن تونس حتى المغرب الأقصى واصل دعوته الإصلاحية دون كلل، إذ ما وطأت قدماه ارض تونس حتى صار في الأسواق يحطم آلات اللهو، ويهاجم محلات الخمر، ويتعرض للنساء السافرات في الطرق، ويعلم الطلبة، وجادل السلطات من مدينة لأخرى عبر قسنطينة وبجاية وملالة وتلمسان ومكناسة ومراكش وأغمات حتى بلده تنملل[35] . ولما كان المهدي قد هاجر إلى المشرق فقد اقتبس من ذلك التطور ما يفيده في دعم أفكاره التي حملتها ثنايا الكتب التي وضعها، كذلك الكتاب الذي افتتحه بعبارة أحرى ما يطلب وأفضل ما يكتسب، وأنفس ما يدخر، وأحسن ما يعمل، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير[36].

وساعدته رحلاته المغربية، والمشرقية، على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور، التي تعانيها دول وإمارات بلاد المغرب. وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح، في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحديه قوية، لا في بلاد المغرب وحدها، بل والعالم الإسلامي كله. نظر ابن تومرت؛ في المدارس الفكرية الرئيسية، التي وجدت في بلاد المغرب قبله، وخصوصاً تلك المدارس، والأفكار، والمذاهب، التي كان لها ثقل مذهبي، وسياسي، تحميه دولة، وشوكة، وقوة، حتى أكسبت تلك الاتجاهات هيبة، ومكانة عند الناس، مما ساعد على شيوعها، وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الإفريقي[37]. تلقى دراساته الأولية بكتاتيبها، قبل أن يشد الرحال طلباً للعلم نهاية القرن الخامس هجري ومطلع القرن الثاني عشر ميلادي، حيث حل بقرطبة ودرس على القاضي أبي جعفر حمدين ، ومنها شد الرحال إلى المهدية أين درس على أبي عبد الله المازني ، ثم ارتحل إلى مصر حيث حل بالإسكندرية وأخذ عن عالمها أبي بكر الطرطوشي، ومنها قصد مكة لأداء فريضة الحج وطلب العلم وبعدها توجه إلى العراق وهناك لقي جمعاً غفيراً من العلماء الذين كانت تعج بهم بغداد وحواضر العراق ، أبرزهم أبو حامد الغزالي، ويبدو مما تقدم أن ابن تومرت تلقى بالمشرق علوماً متنوعة جمعت بين العلوم العقلية

والنقلية ،بفضل من لقيهم وتلقى عنهم من العلماء والفقهاء الذين كانوا على درجة عالية من الحفظ والتحرير والتمكن .

بعد هذا المشوار الطويل في طلب العلم شرع المهدي في طريق العودة إلى مسقط رأسه في رحلة دامت أربع سنوات، كان خلالها يتوقف بالمدن والقرى التي يمر بها فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر متشددا في إنكار الحال الذي كان عليه أمراؤهم، لذلك يمكن اعتبار هذه الرحلة من حياته البداية الحقيقية لثورته والبذرة الأولى لقيام الدولة الموحدية. رحلته إلى المشرق: لما بلغ المهدي من العمر سبعة وعشرين عاما شد الرحال سنة 500هجرية إلى المشرق، فحج وطلب العلم، دامت رحلته خمسة عشر عاما كان لها الأثر الفعال في بناء شخصيته، بل لعلها كانت أهم حدث في حياته، وأكثرها تأثيرا في آرائه [38].

وعن مسيرة الذهاب لا تسعفنا المصادر بتفاصيل كافية لتبين الخط الذي سلكه المهدي إلى المشرق، والأحداث التي جدت في مسيرة الذهاب، ولو لم نعثر عليه في هذا الشأن إن هذه السيرة اتجهت إلى الأندلس حيث نزل المهدي بقرطبة، وربما درس بها على يد القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين ت 548هـ/1153م، إلا أن الإقامة بالأندلس كانت قصيرة، و لم تزد على أن تكون محطة للعبور [39]. ومن الأندلس قصد المهدي بحرا مدينة المهدية حيث درس بها على يد أبي عبد الله المازري ت 536ه//1141م، ثم قصد مصر عن طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بضع أيام؛ وفي مصر حل بالاسكدنرية حيث تلقى دروسا على يد أبي بكر الطرطوشي ت 521ه/1127م، ويبدو إن المقام لم يطل بهذه المدينة، إذ كان الشوق إلى الحج يستحثه، فقصد مكة وأدى الفريضة، ومن هناك قصد العراق على طرق الشام، كما يذكره المراكشي، وبالعراق كانت إقامته لطلب العلم والتبحر فيما يزيد على سنوت عشر [40].

وكانت المدة التي أقامها المهدي بالعراق خصبة إلى حد بعيد ، فقد كانت بغداد في تلك الفترة ثرية بفطاحل العلماء في كل فن ، وهو ما وصفه ابن العربي لما نزل المدينة سنة

486هـ بقوله: " فألفيت بها من رؤساء العلم ورؤوسه، وأشياخ الملة وأخيارها ما يملأ الخافقين؛ ولاشك إن هذا الطالب الشغوف بالعلم حرص على الاستفادة من علماء كثيرين في مختلف فنون المعرف، وه ما أشار إليه ابن خلدون في قوله : "ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علما واسعا "، لأن المصادر التي بين أيدينا لا تسعفنا إلا بأسماء عدد قليل منهم لعلهم يمثلون أشهر العلماء في ذلك الوقت، هؤلاء هم: الغزالي، أبو بكر الشاشي و غيرهم (41).

في سنة 510هـ شرع المهدي في رحلة إلى مسقط رأسه، ولكن هذه الرحلة كانت مخالف تمام لرحلة الذهاب، فقد استغرقت من الزمن أربع سنوات، كان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها، يبث العلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، دونما تعجل للقاء الأهل، ولا تهيب للمصاعب والمشاق، استشعارا في كل ذلك للمهمة الثقيلة التي أصبح يتحملها بحمله أمانة العلم، رفعا للجهل وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر. ويبدو أن نقطة الانطلاق في العودة كانت مكة المكرمة أثر حجة أراد أن يختم بها إقامته بالمشرق، ومن هناك شرع في النهي عن المنكر، فأوذي واخرج من البلد، ومن مكة انتقل إلى مصر، ومكث بالإسكندرية مدة، واختلف إلى مجلس الطرطوشي، ونهى الناس عن المنكر ويأمرهم بالمعروف، فشاغبه بذلك العامة ولغوغاء، وقضى متولي المدينة بإخراجه (42).

ومن الاسكندرية قصد طرابلس بحرا حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية، ثم انتقل إلى المهدية فاتخذ أحد مساجدها مقرا يدرس به العلم مركزا على علم الأصول، وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر مما أحدث في المدينة اضطرابا فنصحه بعض من تخوف عليه بمغادرتها، فغادرها إلى المنستير التي أقام بها أياما مع جماعة من المرابطين الزهاد، ثم انتقل إلى تونس حيث أقام بها في التدريس للعلم والنهي عن المنكر (43). ومن تونس قصد المهدي مع بعض رفقائه المخلصين بقسنطينة، ثم بجاية التي وصلها سنة 511هـ، ويبدو انه أطال بها متخذا أحد مساجدها مدرسة للتعليم، مواصلا كعادته الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر،

باليد واللسان، وقد جمعه أمير المدينة بجمع من الفقهاء فناظرهم وظهر عليهم؛ وبقرية ملالة قرب بجاية التقى بعبد المؤمن بن علي شابا يؤم بالمشرق للتعلم فثناه لما لمح فيه من الذكاء والفطنة، واستبقاه معه يعده لمساعدته على القيا بإصلاح الفساد وتغيير المنكر (44).

ومن ملالة قصد المهدي مع جملة من مخلصي الرفاق من بينهم عبد المؤمن بن علي عاصمة المغرب مراكش، وفي الطريق كان يظم إليه بين الحين والآخر عناصر من الرجال الذين يلمح فيهم النجابة وقوة الشكيمة، كما كان دوما يغير ما يجده في القرى من مناكير متمثلة بالأخص في اختلاط النساء بالرجال، وفي مجالس اللهو والطرب والخمر، سالكا مسلك اللين تارة، ومسلك العنف أخرى غير مميز في نصحه بين الحكماء والفقهاء العامة (45).

ولما وصل مراكش وكان أمير المرابطين علي بن يوسف جعل يلقي الدروس بالمساجد، ويغير المنكر بالمدينة، وتجرأ على الأمير نفسه ليحمله مسؤولياته فيما يحدث من فساد بالبلاد، فعقد له مجلسا بأشهر الفقهاء وعلى رأسهم مالك بن وهيب الأندلسي ت 525هـ/1130م ليجادلوه فيما كان يدعو إليه، ولكنه ظهر عليهم وقطعهم لما كان يحذق من أساليب الجدل والمناظرة (46). وفي الطريق كان ينتهج نفس المنهج السابق في تغيير المنكر والتعليم ومناظرة الفقهاء، حيث كانت له مناظرة شهيرة في العلم وطرقه وأصول الحلق والباطل جرت بمدينة أغمات (47).

كما كان أيضا يتخير الرجال ويضمهم إليه في دعوته التي أصبحت تستهدف مظاهر الفاسد الأخلاقي الاجتماعي، كما أنه في سنة 514هـ حط رجاله بقريته، ونزل بداره في قبيلته هرغة، ليشرع بعد قليل في الثورة المنظمة التي ستغير وجه المغرب في كافة المجالات (48).

لقد كانت تسوءه بعض الأوضاع الاجتماعية والسياسية في البيئة المغربية، وانه كان يتوق إلى مجتمع أكثر عدلا واستقامة، وربما تكون لإقامته بالمشرق بما تشبع فيها من علوم عمقت في نفسه الصورة المثالية للمجتمع الذي ينبغي أن يكون، وباشر الإصلاح بطريق الدعوة تعليما وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر لتغيير ما رآه فاسدا في المجتمع المغربي (49). وكان ذلك

كله تأسيسا على تغيير عقدي يقوم على اعتماد حقيقة التوحيد، وتغيير منهجي يقوم على الاعتماد على الصول النصية القرآن والحديث في بناء الأحكام الشرعية، وقد ظل باستمرار يربي أصحابه على هذه المعاني، ويؤلف فيذلك الرسائل والمصنفات يتجه بعضها إلى العام، ويرمي إلى إصلاح تصوراتهم، ويتجه البعض الآخر إلى الخاصة من العلماء يحاججهم ويروم إقناعهم (50).

ب) الرصيد المعرفي الديني (الإنتاج الفكري)

إن تراث ابن تومرت الفكري ومؤلفاته، وكذلك ما دونه لنا المؤرخون المعاصرون لتلك الدعوة والذين هم من تلاميذ ابن تومرت من أمثال، البيذق، وابن القطان موجودة بين أيدينا، إضافة إلى أن الفترة التي ظهرت فيها تلك الدعوة حظيت بوجود العديد من المؤرخين الذين عاصروها، أو عاشوا قريباً منها، فكتبوا عنها، وهم شهود عيان لما كتبوا، أو قريبون من عصره من أمثال: ابن الأبار والمراكشي، وابن عذارى، وغيرهم. وحتى تكون دعوة ابن تومرت أوضح في النفوس، وفي التاريخ عمد إلى تأليف رسائل في الأصول وفي الفقه وفي السياسة، وكان من بين ما لف لهم في العقائد كتاب المرشدة (51). وقد حفظ لنا التاريخ جملة من الآثار بنوعيها، فوصلتنا بأعيانها، وحفظت لنا المصادر أسماء الكثير منها، ويمكن أن نضبط هذه الآثار في ثلاث أنواع من المجموعات المصادر (52).

*مجموعة من الرسائل السياسية والخطب الوعظة، حفظتها لنا كتب التراجم والتاريخ.

*كتب منفردة: وهي منحصرة في كتابين: محاذي الموطأ، وتلخيص كتاب مسلم.

*كتب ورسائل في سفر واحد، وهو السفر الذي اشتهر باسم اعز ما يطلب، وقد أحاطت بهذه المجموعة ظروف وملابسات تستدعي المزيد من البيان والتوضيح. كما يمكن إن آثار ابن تومرت يمكن أن تغطي جملة من العلوم التي كان قد درسها وبرز فيها حسب: أصول الدين، والفقه وأصوله، والحديث والوعظ، وربما كانت له رسائل غير منتمية بوضوح إلى هذه العلوم ففي أصول الدين (53).

كانت أكثر مؤلفاته في هذا العلم، لان حركته قامت على أساس عقدي، فوجه همه إلى تركيز هذا الأساس، من بينها [54].

*المرشدة: هي رسالة صغيرة الحجم لا تتجاوز صفحتين، فيها عرض موجز لمسائل العقيدة، خال من البراهين، ولعلها أكثر مؤلفات المهدي انتشارا في المغرب والمشرق لأنها تعتبر خلاصة لفكره العقدي، وقد شرحها الكثير من العلماء، ورد عليها وعارضها بعضهم.

*العقيدة: هي رسالة في مسائل العقيدة، مرتبة من التوحيد إلى إثبات الرسالة، استعمل فيها الاستدلالات العقلية، وقد وردت في مجموع اعز ما يطلب.

*رسالة في توحيد الباري: وهي رسالة وجيزة على غرار المرشدة، وردت في مجمع اعز ما يطلب، وهي رسالة في أن التوحيد هو أساس الدين: وتتحدث في معنى التوحيد ومقتضياته وآدابه، وردت في كاب اعز ماي طلب.

*كتاب في التوحيد باللسان البربري: أشارت إليه الكثير من الكتب، وعلى رأسها ابن القطان:" ولولا ما دبرهم به المهدي انه ألف لهم كتاب التوحيد باللسان البربري وهو سبعة أحزاب "، ويشتمل هذا الكتاب مسائل مختلفة في العقيدة متدرجة من معرفة الله إلى معرفة نبيه، وما أخبر به من الغيب، ويبدو أن هذا الكتاب كتب تعليمي يربي عليه المهدي أصحابه، وربما اشتمل على تعاليم أخرى في التشريع والأخلاق، كما أشار إليه ابن القطان.

*كتاب القواعد: يشتمل على قواعد مختصرة في العقيدة بغير استدلال، ورد في كتاب اعز ما يطلب.

*رسالة في العبادة: تشتمل على مسائل مختلفة في العقيدة بأسلوب استدلالي.

*اعز ما يطلب: كتاب يشتمل على مسائل في العلم وفروعه وشرطه وطرقه، وقد جاء ذكره في بعض كتب التواريخ. وكتاب اعز ما يطلب هو عبارة عن مجموعة من كتب ورسائل في الأصول، والفقه والتوحيد، والسياسة والجهاد [55].

*كتاب الإمامة: فيه بحث في قضية الإمامة وأحكامها ومسائلها مثل المهدية والعصمة [56].

كما ترك رسائل في الفقه وأصوله، إلا أن اغلب الرسائل تتمثل في روايات لأحاديث في مسائل فقهية، كرسالة في الطهارة، والصلاة، وكتاب تحريم الخمر، ورسالة في أصول الفقه [57].

أما في الدعوة والمواعظ من خلال: رسالة في تسبيح الباري سبحانه وتعالى، وخطبة الوداع، والرسالة المنظمة، وهي رسالة كتبها إلى أتباعه، يبين فيها أخطاء المرابطين في العقيدة والسلوك، ورسالة لأتباعه ينهاهم عن الخمر والغلول ويعدهم بالنصر وظهور الحق، وغيرها من الرسائل في هذا الباب [58].

ثالثا–منهج الإصلاح في فكر المهدي

إن حركات التغير الإصلاحية تهدف إلى تتريل منهج جديد للحياة متزلة منهج سائد في الواقع ، ولذلك فان عملية التغيير هي عملية ذات محورين رئيسين: محور يعتمد على رفض الواقع، ومحور يعتمد على تتريل البديل مترلته، وتحتاج كل حركة تغييريه منوط بأحكام الصنع في المحورين معا، وكل خلل في احدهما يؤدي إلى خلل في الحركة قد ينتهي إلى انتكاسها وفشلها، والوقوف على مظاهر والفساد، ووقوفا على أسبابه وعلله والزيغ فيذلك الواقع، بالاعتماد على شواهد موضوعية من اجل تغيير المنكر، ورفض الواقع رفضا واعيا [59]؛ ولهذا سلك ابن تومرت لتحقيق أهدافه المناهج الإصلاحية الآتية ذكرها:

أ) المنهج التربوي الديني

بدفع من الواجب الديني المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انطلق المسلمون يصنعون تاريخيهم بما يقيمون في مجتمعه من جدلية بين الحق الذي يريدون أن يسود في التعليم الإسلامية، وبين الواقع الذي يستعصي عن الاستجابة في الكثير من الأحيان، وأسفر ذلك التاريخ عن حلقات متعاقبة من الحركات الإصلاحية التي قامت في المجتمع الإسلامي مبثوثة على مدى المكان والزمان، هادفة إلى تتريل الصحيح للحقيقة الإسلامية في واقع الناس، عامدة إلى إزالة مظاهر الفساد الطارئة على ذلك الواقع [60] لما رأى المهدي أن الكثير من العامة تأتي المناكير جهلا بالدين، وأن الكثير من خاصة العلماء تنهج التقليد والاجترار فلا يكون لها فعالية وتأثير، قدر انه لا بد القيام بدور تربوي يهدف إلى تبصير الناس بحقائق الدين، ورفع الجهل

عنهم سواء في مستوى التعريف بالأحكام الصحيحة، أو في مستوى التعريف بالمنهج الصحيح المؤدي إلى تلك الأحكام.

وتمثلت الخطوة الأولى في هذا المنهج التربوي فيما التزمه في رحلة عودته إلى المشرق من دأب على تبصير الناس بالمناكير التي يأتونها وحملهم على تركها، وتبصيرهم بالمعروف الذي ينبغي أن يأتوه، وكذلك فيما التزمه أيضا في هذه الرحلة من أدب المحادثة الفقهاء والعلماء ومناظرتهم، وتبصيرهم بالمنهج الصحيح في العلم من خلال التأصيل للأحكام من خلال مصادر التشريع (61). وقد اتخذ من هذا النسق التربوي الدعوة إلى التربية الروحية خاصة وان اغلب المنضمون تحت دعوته من البدو والأميين الذين لا يستطيعون استيعاب العلوم الشرعية، لذلك بادر في التأليف للكتب لأتباعه في التوحيد والعبادة خاصة، توخى فيها أسلوبا ميسرا سهل المأخذ، وألف نظائر باللسان البربري لمن لا يعرف العربية (62).

وفي عام 515هـ/1121م تقريبا تبدأ مرحلة جديدة من حياة ابن تومرت بين عشيرته، مرحلة الدعوة الدينية والسياسية، أما الجانب الديني فيمثل في تعليمه البربر أصول دينهم، داعيا إلى مبايعته بالإمامة مدعيّا انه المهدي، وملزما أتباعه بطاعته، مضيفا على شخصيته العصمة، ويشير المؤرخون إلى انه اخذ فكرة المهدية عن الشيعة، ولكن تصورات المهدية والإمامة والعصمة لم تكن لديه عن عقيدة كما هو حال الشيعة، وإنما لدواع سياسية (63). جعل ابن تومرت, فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أهم عقائده, وبها أستطاع تهذيب أخلاق أتباعه، وعلمهم النظام والطاعة, واحترام صغيرهم لكبيرهم, ومحبة الوالدين، والجهاد في سبيل الله، والتضحية بالنفس والمال في سبيل الحق – حسب رأيهم – وبذلك أوجد ابن تومرت،جيلاً من أنصاره يستطيع به أن يحقق أهدافه؛ فقد تفانوا في خدمته، فلما أستوثق من أخلاص أتباعه، أتخذ منهم دعاة, يشتركون معه في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتذاب القبائل للانخراط في سلك الدعوة الموحديه، كما استخدم ابن تومرت، الرسائل ذات الأسلوب الجذاب في استعماله رؤوس القبائل لدعوته (64).

وعندما أخذ طريق العودة ربما لم يكن ذلك الأمل تطور إلى حد التفكير في الثورة وتكوين دولة جديدة، و لم تكن في تلك الممارسات المتصاعدة في أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر ابتداءً من مكة ومروراً بالإسكندرية وطرابلس والمهدية وبجاية راجعة فيما يبدو إلى هذا الأمل السياسي أكثر مما هي راجعة إلى غير دينية ويقظة ضمير، ولاشك أن ما جرى لابن تومرت بمراكش من أحداث انتهت أخيراً إلى اعتزام السلطة القبض عليه وقتله، عمق في نفسه فكرة الثورة والتغيير الشامل، فواقع الحياة المغربية حافل بمظاهر الفساد والتعفن والانحراف، والسلطة المرابطية لا تسعى لإصلاح الفساد ولا تسمح لأحد بأن يسعى فيها، ولما حل بآغمات ازدادت هذه الفكرة وضوحاً ونضجاً، وقد عبر عنها بوضوح وجلاء حينما خلع مبايعة علي بن يوسف عن أعناق تابعيه وأصحابه، وأعلن الجميع بخلعه (65). وكان الاقتراب من قبيلته هرغة لا يزيده إلا عزماً وإصراراً على ما أصبح اقتناعاً راسخاً فيه حتى إذا ما حل بقريته ملالة، وأصبح في حماية من قومه وفي عزة من أرضه.

وهكذا يبدو أن بذرة الثورة نبتت في نفس ابن تومرت منذ الشباب متمثلة في مكانة يضمره من المآخذ على الواقع المغربي، ولازالت ينميها إيمانه العميق بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتُنضجها تلك الأحداث التي شهدها في رحلة عودته حتى آلت آخر الأمر إلى الظهور، فترتبت عليها وجهة سياسية عندما حلّ ابن تومرت بأيجلي وشرع في الدعوة إلى أفكاره، وانضمام العديد من الناس إليه، وجعل يتكاثر يوماً فيوماً، وقد استدعى منه ذلك أن يقوم بعملٍ سياسي يهدف إلى استيعاب هؤلاء الأتباع المتزايدين ويقوم على تهيئتهم نفسياً وتنظيمياً لبناء مجتمع جديد التي تهدف ثورته إلى إقامته، وسلك في ذلك أساليب متعددة تختلف باختلاف الظروف، وتجدد بتجدد الحاجة.

يُعتبر الأساس الديني الذي بنى عليه ابن تومرت حركته الإصلاحية له أثرٌ بيّن في مستقبل الحكم الموحدي، حيث كانت الصبغة العامة لهذا الحكم صبغة دينية في مختلف المجالات، سواءً فيما يتعلق بالجانب التعبدي المتمثل في أداء الفروض والمحافظة عليها أو بسلوك مسلك العدل بين الرعية وتوفير مصالحهم وتحقيق الأمن لهم، أو بالدفاع عن الإسلام ونشر كلمته بالجهاد.

لقد كان عبد المؤمن يُعظم أمر الدين ويقويه ويُلزم الناس بسائر بلاده بالصلوات، ومن رُؤيَ في وقت الصلاة غير مصلٍ قُتل، وذكر ابن القطان أنه كان يُلزم نفسه بالتقشف، حتى أنه ما لبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وعن سراويل وعن جُبة تواضعاً لله تعالى [66].

ب) منهج سياسي يعتمد على العقيدة الاشعرية

انتهج ابن تومرت، سياسة واضحة المعالم، للقضاء على النظام القائم، وبناء نظام جديد، وكانت خطته تسير في سبل ثلاث: حملة نقدية للمرابطين، وإقامة تنظيم سياسي، وتعبئة للأنصار:

1* الأشعرية: إن الحديث عن تمكن العقيدة الأشعرية في بلاد المغرب الإسلامي مرتبط بنجاح شخصية سياسية ودينية مغربية هي محمد بن تومرت الذي تبنى هذا المذهب العقدي وساهم بدور كبير في نشره، ولعل أهم ما طبع عقيدة هذه الشخصية من مبادئ الأشعرية قوله في التأويل المتشابه في الآي والأحاديث، فهو بذلك أول من فتح الباب على التأويل في بلاد المغرب فعلياً [67].

كما أن ابن تومرت قد هيا للمغاربة العقيدة الأشعرية استعدادا لاعتناقها، وإنها ليس في الحقيقة إلا لتطوير لمذهب السلف أضيف إليه العنصر العقلي في الاحتجاج والتأويل، فلما كانت الذهان عامرة بالأصل تقبلت هذا التطوير بما سبق لها من العهد به طيلة ما يقارب القرنين [68]. كذلك ما توفر للمهدي وخلفائه من سلطة سياسية استعملت في نشر آراء المهدي، ومن بينها آراؤه الأشعرية، ولا شك إن السلطة السياسية وفرت لها من الوسائل النشر المادية والمعنوية مما ساعد على تبليغ هذه العقيدة في أسرع وقت وفي أوسع رقعة حتى كان لها الظهور والرسوخ [69]. وقد قال ابن خلدون: " طعن المهدي على أهل المغرب في ذلك التنكب عن التأويل وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بالأشعرية وكافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، فالمهدي لم يأخذ الناس بكافة الآراء الأشعرية، وإنما بتلك التي اقتبسها من الأشاعرة فحسب، كما أننا لا نعثر في مؤلفات المهدي وأقواله ولا في أثار خلفائه على الإعلان

بإمامة الأشاعرة، ولا دعوة إليها باستقلال، ولا اخذ بتقليدها، بل كانت الدعوة إليها ضمنية في الدعوة لأرائه (70).

لقد حاول ابن تومرت تغيير وضع معرفي كامل اتسم بالجمود والتشبت بعلم الفروع خلال الفترة المرابطية، وتوجيه الاهتمام نحو علم أصولي: أصول الدين والفقه معا، فلم تم تبديعه وصل مرحلة التكفير الموجب لإباحة الدم، يقول ابن خلدون مفسرا ذلك:" إن الفقهاء المالكية قد ملئوا حسدا وحفيظة منه لما كان ينتحل مذهب الأشعرية في تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إمراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيما ويذهب إلى تكفيرهم بذلك (71). أما مذهب الموحدين فيقوم على التوحيد إذ تميز ابن تومرت على فقهاء السلف في معرفة الشريعة بأنه يرجع في أصول العقيدة والشريعة الإسلامية إلى القرآن والسنة وإجماع الصحابة، وهو بذلك يطرح الأصل الرابع عند أهل السنة وهو القياس وإجماع الفقهاء أو العلماء الذي يدخل في (الظن) كما يسميه ابن تومرت فإجماع العلماء لم يعد له مبرر لأن المهدي بوصفه الإمام المعصوم يقوم مقامه ويغني عنه واجتهاداته لها قيمتها الشرعية (72)، لقد كان انتشار الأشعرية بالمغرب نتيجة لما بذله المهدي و خلفائه من بعده من جهد خططهم التربوية الهادفة إلى الإقناع بالرؤى التي رسمها المهدي ، وجعلها أساسا يجري عليه الناس تصوراتهم العقدية ، ويعوضون به لما كان سائدا من تصورات قد يخالطها أحيانا من التشبيه و التجسيم، وقد كان هذا العمل منهم ركنا أساسيا من أركان الدعوة الموحدية الهادفة إلى التغيير الشامل في الفكر والسياسة و الاجتماع (73).

2*الحملة النقدية ضد المرابطين

يبدو مما عرفناه عن التطور المذهبي والعقدي أيام المرابطين، وخاصة الأندلس أن التوجه العقدي في عهد المرابطين كان توجها نخبويا عرفناه عند كبار العلماء دون تنزيل الأشعرية إلى مستوى جمهور الناس، إلى غاية ثورة المهدي التي تبنت في جدلها الاتجاه العقدي الأشعري وبعض من أصول الشيعة كالعصمة والإمام المهدي، حيث بالغ بعضهم بوجود اتجاه تشبيهي

عمَّ المغرب في عهد المرابطين على الأخص، ولا شك أن منشأ هذه المبالغة؛ هو التأثر بدعاية الموحدين ضد المرابطين التي تزيد عن عقدين من الزمن كما أشار كل من تعرض للمهدي وثورته الفكرية والدولة الموحدية، وإطلاقهم اسم المجسمة عليهم إمعانًا في تهجينهم، وتأليب الرأي العام عليهم، لذلك طرحت الدعوة الجديدة صراعًا كبيرًا بين فقهاء المالكية ودعاة الفكرة الجديدة الذي لا يتفق مع التفسير التقليدي السائد عند المرابطين [74].

وعلى إثر عودة المهدي بن تومرت(524هـ/1130م) من المشرق إلى المغرب أثار مسألة كلامية وهي قضية التجسيم [75]؛ وكان يجادل الفقهاء ويعرض الناس عن إتباع مذهب السلف، ويعتمد في مناظراته على "طريقة علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة"؛ ونعت المرابطين بالكفرة، وصف أتباعهم ومن ساندهم من فقهاء العصر وأعوانهم بأبشع الصور قال: فهذه الطوائف الثلاثة الذين شمروا وتجردوا لهدم الدين وإماتته، أعني أهل التجسيم الملثمين، والبرابر المفسدين، والمكارين الملبسين من الطلبة، وهم شر الثلاثة(فقهاء المالكية)، تسموا باسم العلم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وتزينوا بالفقه، والدين، وتعلقوا بالكفرة، وانحازوا إلى جنبتهم، واستفرغوا مجهودهم في معونتهم،وفي طلب مرضاتهم، لما رأوا الدنيا في جنبتهم، وتركوا دينهم وراء ظهورهم، وأعانوهم على باطلهم" [76].

كما شن حرباً نفسية على حكام وأمراء وأتباع المرابطين، في رسالته إليهم: (إلى القوم الذين استزلهم الشيطان, وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية, لمتونه...), وهكذا شرع ابن تومرت, في توجيه حملة نقدية إلى دولة المرابطين, ووسع نطاقها, واستهدف بها جميع الناس, من أهل المغرب، موالين أو معادين, وحرص على أن يعزل الحكام عن عامة الناس ، بفضح سياستهم, وتضخيم أخطائهم, تنفيراً للنفوس منهم, وتمهيداً لنزع ولائهم, ثم لمعاداتهم، وإمعاناً منه في تهجينهم وتشويه صورهم, اخترع الألقاب المشينة, ورماهم بها [77].

لقد اتُّهِمَ أمراء المرابطين بالجهل والتعصب، وكان دأب المستشرقين الحط من أمراء المرابطين وقد أثبتت أخبارهم القليلة في نصوص واضحة، أنهم شاركوا في مجالس العلم وشجعوا

الأدباء والشعراء والحكماء، وهذا قسمين بالرد على الاتهامات المجانبة للحقيقة التاريخية، فإذا كانت المرحلة الأولى من قيام الدولة قد غلب على أخبارها عند المؤرخين التاريخ السياسي المدوي الذي أرخ لفتح المغرب وضم الأندلس وهذا هو الأهم الذي ركزت عليه أغلب الكتب المتأخرة عن عصر المرابطين إلا أن الإشارات القليلة المتوفرة تبرز مرحلة ذاتية من التطور الذي عرفته عقب الوحدة المغربية الأندلسية التي وفرت لهذه الدولة جهازًا فقهيا متمرِّسًا (78).

3* تعبئة الأنصار: أخذ ابن تومرت، يرتب أنصاره طبقات، بحسب أخلاصهم له، وحاول الاقتداء بالرسول ﷺ فقال أن تينملل دار الهجرة، وقسم أصحابه إلى طائفتين، كأنهم المهاجرين والأنصار من أصحابه، وأصحاب – محمد بن تومرت – الأوائل هم طبقة العشرة، وهم أول من بايعه وآمن بأنه المهدي المنتظر؛ والأنصار هم طبقة الخمسين، وهم الطبقة الثانية من أتباعه. ومن ثم طبقة السبعين، وبعدها طبقة الطلبة الحفاظ، وطبقة أهل الدار. أما الطبقات الأخرى من السابعة إلى الثالثة عشرة، فهي طبقات القبائل، وقد هدف محمد بن تومرت، في تنظيم زعماء القبائل في هذه الطبقات، لكي يضمن ولاءهم، وبالتالي ولاء قبائلهم، كما هدف إلى نقل ولاءهم من القبيلة إلى الطبقة، وبالتالي للنظام الموحدي (79).

بلغت طبقات الموحدين – التي صنفوا بموجبها – إلى أربع عشرة طبقة، كانت الطبقات الثلاث الأولى أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشايخ القبائل، وزعماء المصادمة، وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية، والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي: معالجة أمور الموحدين، وتسيير دفة الحكم. أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها: عسكرية، وعلمية، ودينية. بدأ الأتباع يتكاثرون من مختلف القبائل، وأدرك المهدي أن السيطرة عليهم وتوجيههم نحو الهدف أصبح يقتضي إنشاء جهاز تنظيمي يحصُر هؤلاء الأتباع، ويُسهل مراقبتهم ويحكم ارتباطهم به، ويشتمل هذه التنظيم على الهيئات التالية: أهل العشرة أو أهل الجماعة، أهل الخمسين، أهل السبعين (80).

ج) مضمون التغيير الاجتماعي

لما عزم المهدي على حركة التغيير كان في ذهنه بديل واضح لما حسبه فسادا، ونهض لتغييره، ويتمثل هذا البديل في مشروع شامل لا يحمل من التفاصيل والجزئيات، وتتخلل مضامين المشروع مضمون عقدي يعتبر المعين الذي يستهلم به اطر ثورته وتطبيقاتها، ومضمون سياسي واجتماعي بين الطريق الذي تطبق به تلك الأحكام في المجتمع (81). لقد كان التغيير الاجتماعي هدفا من الأهداف الرئيسة في حركة ابن تومرت، إلا أن البديل الذي أراد أن يقيمه مقام ما كان واقعا لم نجد له في آثاره المكتوبة مضمونا مقررا على وجه الضبط والوضوح، بل تتبين ملامحه من خلال تلك الانتقادات التي كان يوجهها إلى المرابطين في تصرفاتهم السياسية والاجتماعية، وذلك من خلال إنشاء مجتمع من الأتباع والمناصرين بناء على قواعد أساسية واجتماعية تساعد على استنتاج رؤاه في هذا لا.

*العدل والمساواة: لطالما أخذ المهدي الحكام المرابطين على إخلالهم بالعدل والمساواة بين الناس، وممارستهم للمحاباة الأقارب، والأتباع، وظلم الضعاف من الرعية وابتزاز أموالهم، وقد كان شديد التركيز على ذلك، دائم التشنيع له (82).

ومن أقواله في ذلك مما يتعلق بالمحاباة: " فإذا أرادوا مجسما سفيها مضيعا، على الفجور والخمور مصرا، أو قاطعا للطريق سفاكا، أوعاصيا فاجرا، أومتهاونا بالدين، مستخفا أ بالحلق قربوه ورفعوه وارموه لفعله مثل أفعالهم، وسلوكهم لسبيلهم " (83). ومن أقواله في ظلم الضعاف من الرعية:" استباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واخذ أموال اليتامى والأرامل، وتمالوا كلهم على ذلك، وتعاونوا عليه فرحين مسرورين " (84). ومن ذلك ما جاء في أحد رسائله من خطاب لأتباعه قال فيه:" واجتنبوا المحارم، وردوا المظالم، وتحللوا وتغافروا فيما بينكم يغفر الله لكم... ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولا تخونوا ولا تغدروا...»، ويبدو ناه وضع تعازير مشددة لكل تجاوز هذه القواعد نطاق المجتمع الذي أنشأه (85).

ولقد كان حرصا على جمع الزكاة من أغنياء إتباعه وتوزيعها على الفقراء منه، كما كان حريصا على توزيع الفيء بينهم على وجه العدالة، وعلى قسمة الأرض التي يقع الاستيلاء عليها محذرا من أكل مال الغنيمة [86] (الغلول).

*التآخي والتناصر: أولى المهدي عناية بالغة لمبدأ التآخي والتناصر بين أفراد المجتمع الذي أسسه، وجعل ذلك إحدى المهام الأساسية في عمله اليومي [87].

رابعا- صدى دعوة المهدي

أ) تأثير الأفكار المهداوية على الساكنة

اخذ أصحابه بتعلم واستيعاب ما في تلك الكتب من حقائق العبادة والتوحيد، مع التزام بحفظ أجزاء من القرآن الكريم والحديث الشريف، وقام على ذلك بنفسه حيث التزم بتدريس جزء من محتوى تلك الكتب وتحفيظ جزء من القران كل يوم أثر صلاة الفجر، ولما تكاثر عدد الأتباع قسمه إلى مجموعات عشرية، وكلف بكل واحدة منهم نقيبا من أصحابه النابهين يقوم على تعليمها، وكان يشدد عليهم في تلك التربية خاصة ما يبدي التهاون في حضور الأوقات المقررة، أو في حفظ ما يطلب منه حفظه [88]. وإلى جانب هذا التعليم العام كان المهدي يؤلف كتبا ورسائل خاصة للمبرزين في العلم من أصحابه أومن عامة أهل المغرب، وهي كتب ورسائل خصص بعضها للاستدلال العقلي على حقائق العقيدة، وتفصيل منهج التأصيل في الأحكام الشرعية [89].

وكان المهدي يقوم بنفسه بتدريس وشرح ما كتبه من مؤلفات ويلقن الناس فحواه، وقد قال ابن خلدون:" فترل المهدي على قومه وذلك سن 515هـ/1121م وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة والتوحيد باللسان البربري؛ وذكر ابن القطان بشيء من التفاصيل المسائل التي كان يدرسها المهدي والأساليب التي كان يتبعها لإنفاذ أفكاره، وضمان نجاعة تعليمه [90]. كان المهدي يجتهد في نشر الإسلام بينهم وقال لهم: اجتهدوا في تعليم ما يلزمكم من فرائضكم، واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم حتى

تنفوا عن الخالق التشبيه والشريك والنقائص والآفاق والحدود والجهات، فمن جعله في مكان أوجهة فقد جسمه، ومن جسمه فقد جعله مخلوقا ومن جعله مخلوقا فهو كعابد وثنلهذا كان يقول بأن الجهاد ضد المرابطين فرض على كل موحد، وأهم من الجهاد ضد النصارى والمشركين قال:"اجتهدوا في جهاد الكفرة الملثمين فجهادهم أعظم من جهاد الروم وسائر الكفرة بأضعاف كثيرة، لأنهم جسموا الخالق سبحانه وأنكروا التوحيد وعاندوا الحق" (91).

ولما تولى عبد المؤمن الحكم اعتنى بمؤلفات المهدي وصادر مرسوما يأمر فيه عامة الناس بان يشتغلوا بقراءة مؤلفات المهدي في العقيدة، وضبط لهم في ذلك أقدارا معينة، وتريب خاص يتبعونه، ومما يلفت الانتباه ما جاء في هذا المرسوم من أنه:" يلزم العامة ومن في الديار قراءة العقيدة التي أولها أعلم أرشدنا الله وإياك، وحفظها وتفهمها "، فهذه العقيدة ذات صبغة أشعرية خالصة، من كل قول في الإمامة وما يتعلق بها، وإلزام العامة بحفظها وتفهمها، سيكون له دور كبير في انتشار العامة الناس انتشارا واسعا (92). وتكونت لهذه المؤلفات مدرسة مغربية في أصول الدين ذات صبغة أشعرية، ونشط التدريس لهذا العلم، والتأليف فيه، بعدما كان مهجورا مقبحا معدودا من البدع، مأمورا في عهد المرابطين بتجافيه، متشددا على من وقع الشك في الميل إليه (93). وعقيدة المرشدة هي رسالة وجيزة لا تتجاوز صفحتين- تم الحديث عنها- وسميت بذلك لأنها افتتحت بعبارة العلم أرشدنا الله وإياك ... فصار على هذا الافتتاح علما عليها، وقد حررت تحريرا بليغا، وعرضت فيها المسائل المتعلقة بالإيمان بالله تعالى ذاتا وصفات دون التعرض لشيء من السمعيات أو شيء مما يتعلق بالإمامة (94).

كما أننا نجد محمد بن تومرت، يصبح سيداً مطاعاً، ومرهوب الجانب، في جماعة كبيرة من المصامدة، تطيعه طاعة عمياء حقاً، وتخاف منه خوفاً شديداً، حتى كان يأمر الرجل من أتباعه بأن يقتل صاحبه، أو أخاه أو أباه، فينفذ الأمر دون تردد، وفي عام 519هـ، قام ابن تومرت، بعملية تصفيه جسديه بشعة، قضى فيها على كل من يشك في ولائهم أو تصديقهم، بأنه المهدي المعصوم. فرتب خدعة استخدم فيها الدجل والشعوذة، واسماها بالتمييز – أي

تمييز الصالح من غير الصالح – وكان مصير غير الصالح القتل، وبهذا صفى له أمر الجماعة تماماً، وبدى له الآن، أنه يستطيع أن يقوم بالخطوة الحاسمة، في تحقيق أهدافه السياسية، وهذا ما سنوضحه في الفصل الثاني (95).

لقد كانت الآفاق السياسية, واضحة المعالم في فكر محمد ابن تومرت, ولذلك أسس بديلاً سياسياً – اجتماعياً – تربوياً – ليحل محل النظام السياسي والاجتماعي والتربوي في دولة المرابطين, وقد أظهر ابن تومرت, في منهجه السياسي, ملكه تنظيمية كبرى, وقبض بيد من حديد على أنصاره, فأعطى مجلس العشرة, سلطاناً كبيراً, وحكّمهم في الناس, وجعل مجلس الخمسين, كلهم رؤساء القبائل, وسيطر بواسطتهم على قبائلهم، وجعل الجميع عيوناً له، بعضهم على بعض، يوافونه بكل صغيرة وكبيرة مما يقع حوله، أو ما يصلهم من أنباء، مما جعل ابن تومرت، مطلعاً على أمور مجتمعه الجديد، وأصبح مطاعاً، ومرهوباً، في جماعة كبيرة من الصامدة، تطيعه طاعة عمياء — حقاً، وتخاف منه خوفاً شديدا (96). كما يعدد لنا أبو بكر الصنهاجي، المعروف بالبيذق، المعارك التي حدثت بين المرابطين والموحدين، فيقول أنها بلغت ثمان غزوات متوالية، الأمر الذي أتاح للموحدين، أن يبسطوا سيطرتهم المطلقة على منطقة السوس. وفي سنة 518هـ، سار، محمد بن تومرت، بقواته نحو منطقة تينملل الصغيرة، التي تقع فوق ربوة عالية، في سفح جبل درن، وهو أحد شعاب جبال الأطلس، المشرفة على مراكش بمسافة لأتزيد عن المائة كيلو متر، واتخذها داراً ومعسكراً، وقاعدة للانطلاق، ومن هناك، بدأ يرقب تحركات المرابطين عن كثب، حتى سنة 520هـ (97).

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين، بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير، استخدم فيها الطرفان مختلف الخطط ضد بعضها البعض، ولكن خطط الموحدين، كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون، أسلوب الحرب الطويلة، مستخدمين أسلوب حرب العصابات، فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين، كما أن هذا الوضع؛ شجع الأسبان على تشديد الضغط على المرابطين، لتحويل المعركة لصالحهم (98). وقد صور صاحب الحلل الموشية

ذلك بقوله: (وتأججت نار الفتنة بالمغرب، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار، وتوالت الفتن, وعم الجدب، وقلت المجابي، وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين، ووجه كثير من حماه الأندلس إلى العدوة، ونقل إليها كثير من أسلحتها وعددها، فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس، وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس؛ حين علموا بعجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع, لما فيه من الفتن، حتى تغلبوا على كثير من بلادهم، وكان الإسلام بها عزيزاً، والكفر مقهوراً، والجزية مرتفعة، منذ ملكها يوسف بن تاشفين, إلى زمان خروج المهدي, فساءت الأحوال، وكثرت الشدائد والأهوال) (99).

وفي عام 558هـ /1163م، توفي عبد المؤمن بن علي، وهو في الثالثة والستين من عمره، وقد حكم ثلاثة وثلاثون عاماً، وأخفي خبر وفاته، حتى دخل أبنه يوسف، إلى المغرب، قادماً من اشبيلية (100).

وعلى هذا النهج الذي سار عليه عبد المؤمن سار أيضاً ابنه أبو يعقوب يوسف، فقد ذُكر عنه أنه كان يُشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلاة ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها، فمن تركها عوقب، وكان يتصف بالتحري الشديد في الدماء، كما يتبين من رسالة بعث بها إلى عماله في كافة البلاد، وقد كان محباً للجهاد مداوماً عليه متقرباً به إلى الله تعالى، وكان قبل الشروع في أي معركة يُكثر من الضراعة إلى الله وتبلغ نفسه أشد الشفافية والصفاء، وهو ما صوره ابن الخطيب في حديثه عن استعداد المنصور لموقعة الأرك، فقال:" عرض الجيش وأخذ في تقريب القُرب إلى الله بين يدي جهاده، فسرح السجون، وأدر الأرزاق وعيّن الصدقات..." وقام بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال:" أيها الناس، اغفروا لي فيما عسى أن يكون صدر مني، فبكى الناس وقالوا، منكم يطلب الرضى والغفران" (101).

كذلك المحور الأساسي في مذهب ابن تومرت في العقيدة هو تصوره لوحدة الله المطلقة أو توحيده، ومن أسس عقيدة ابن تومرت إعلانه عصمة الإمام المهدي وهو ما أعطى مذهب المهدي طابعا شيعيا وإن خالف الشيعة في استخدام الاستشهاد به في دروسه، وقد

انتشر المذهب الموحدي بين أتباعه وبين حاشية الدولة الموحدية، وقد اتسم طابع الدعوة لهذا المذهب الجديد بالعنف، بل نجد من الباحثين من يرى أن مذهب ابن تومرت استمر مذهبا أجنبيا على عامة سكان المغرب، إذ كان الغالب عليهم أتباع المذهب المالكي منذ قرون، كما أن انتشار ظاهرة التصوف ونزعات الزهد قبل عهد الموحدين وفي أيامهم جعل الكثيرين يميلون إليها وصرفهم عن المذهب الذي دعا إليه ابن تومرت وأتباعه أي المذهب الرسمي لدولة الموحدين ؛ لذلك فشل الموحدون في محاولتهم تبديل مذهب غالبية سكان المغرب والأندلس وإحلال فكرهم محل العقائد والاتجاهات الدينية السائدة بين فئات الفقهاء المالكيين وبين فئات المتصوفة الناشئة) ، وامتحن كثير من العلماء من خلال وقوفهم في وجه المهدوية فهذا عبد الله بن محمد المعروف بابن ذمام ولد يوم دخول المرابطين الأندلس، ومات عام 560هـ/1165م أي أنه من الجيل الذي عاش الأحداث التاريخية كلها أيام المرابطين ببلاده، فكان ينال من الموحدين ويسطيل على المهدي، فكان خطباء بلده يعظمون المهدي ويدعون له بالرضوان فيقف أمام الناس ويقول له كذبت لعنك الله، فأوذي وسُجِن بمالقة، ثم نقل إلى مراكش إلى أن استعطف المنصور لفك أسره فقال في قصيدة معلومة (102):

ظهائرُ لطف الله في سر مقصد — ويشهد لي عند الأمير بمقصدي

ويدري أمير المؤمنين بأنني — على مذهب في الأمر عدل مسدد

وإني على حب الإمام وهديه — ومن بعده من راشد الأمر مرشد

وإن يدر لا أبقي بسجني مقيدًا — بأثقل قيد ضيق مؤلم رَدِ

والدولة الموحدية على المستوى المذهبي أحيت المذهب الظاهري خاصة منذ عهد أبي يعقوب المنصور؛ ورغم ما عرفه المغرب الإسلامي من تحولات مذهبية فإنه يرجح أن يكون المذهب المالكي قد رسخ في هذه البلاد على الرغم من محاولات الفاطميين والموحدين الفاشلة، لتحويل المنطقة عن مذهبها المالكي وعدم انتحال الأغلبية لهذا المذهب الرسمي شكَّل عنصر

ضعف أساسا للدولة الموحدية، فلا غرابة أن اضمحلت نحلة ابن تومرت بعقود قبل سقوط الدولة التي أسسها [103].

ب) من المحلية إلى وحدة العالم الإسلامي

قد لخص ابن جبير الصبغة الدينية وما كان لها من تأثير في الحياة العامة، فيما عقده من المقارنة بين صورة الوضع بالمشرق وصورته بالمغرب على عهد الموحدين فقال:"وليتحقق المحقق، ويعتقد الصحيح الاعتقاد، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بُنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية، فأهواءٌ وبدع، وفرق ضالة وشيَع، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها، كما أن لا عدل ولاحق ولا دَين على وجهه إلا عند الموحدين أعزهم الله، فهم آخر أيمة العدل في الزمان، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان، فعلى غير الطريق يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها، اللهم إلا هذا السلطان العادل، صلاح الدين الذي ذكرنا سيرته ومناقبه ولو كان له أعوان على الحق" [104].

ورث المرابطون مدنية وحضارة قائمة دافعوا عن منابرها وأقاموا ما سقط من عمرانها وحفظوا للأندلس استمرار رقيها الحضاري وكانت الأندلس على أيامهم ساحة للقتال بينهم وبين نصارى الشمال وبينهم وبين القوى المسيحية المحيطة بهم حيث تحالفت البابوية في روما مع المجموعة الديرية بكولون، وحكام الممالك المسيحية الذين كانوا يدافعون عن الإرث القوطي والمسيحي لأسبانيا، وهو ما تمثله ألفونسو السادس بعد سيطرته على طليطلة، حيث أصبح يدعى حامي الملتين (المسيحية، والإسلامية) على زعمه. فلم يكن جنود المرابطين برابرة وهمجًا كما وصفتهم كتابات المتعصبين أمثال سيموني وأضرابه من المؤرخين كأرشيبالد لويس الأمريكي ورينهارت دوزي وغيرهم من المتحاملين على دولة المرابطين؛ بل تعلموا وتمدنوا وظهر بين أمرائهم العلماء كأبي علي المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني الذي كان من المحدثين الكبار، واقتنى من دواوين العلم ما لم يكن لأحد مثله في

عصره، وكانت له في قومه رياسة وهو فخر لمتونة العلمي، وفخر صنهاجة ليس مثله ممن دخل إلى الأندلس [105].

لأن نظرية ابن تومرت قامت على عناصر مختلفة انتقاها من هنا وهناك إذ نجد فيها أفكار الأشاعرة والغزالي، والشيعة، والمعتزلة "لكن ابن تومرت ركب هذه الأفكار تركيبا بارعا متماسكا (...) إلا أن فكرة الإمام الموحدي كانت تهدف بأسرها إلى تحقيق غاية واحدة، هي القضاء على دولة المرابطين وإقامة حكم جديد محلها. وقد أصبح التصور العقائدي والمذهبي للدولة الموحدية على إثر هذه الحركة الإصلاحية يحمل طابعا سياسيا ودينيا تجاه الأسر السنية المتحكمة في شؤون العالم الإسلامي، فقد رفض أبو يعقوب المنصور نجدة صلاح الدين الأيوبي بأسطوله البحري والحيلولة دون وصول الإمدادات من البحر إلى الصليبيين. ويستنتج من هذا – كم يقول الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث: " أن خلفاء بني عبد المؤمن كانوا يرفضون المشاركة في أي أمر إزاء أهل السنة حتى ولو كان هذا الأمر يرمي إلى إنقاذ الحرمين من تهديدات الصليبيين لهما ويبدو أن مفهوم ابن تومرت وأتباعه للإله ووحدته أدى إلى اعتبار المرابطين وبصفة شاملة جميع المالكيين مجسمين وملحدين، وكان يرى أنهم أخطر على الدين من النصارى، لأنهم يلبسون الإسلام مفهوما مخالفا لمفهومهم الحقيقي، فلعل مفهوم الموحدين للجهاد والعلاقات الحسنة التي كانت تربطهم بالجمهوريات الإيطالية المسيحية هما السببان في كفهم عن المشاركة إزاء أهل السنة في الحرب ضد حاملي الصليب وإن رأى غيرنا الخلاف الشديد الناجم بين الأيوبيين والموحدين في هذه الفترة راجع إلى دور الأيوبيين في إسقاط الدولة الفاطمية التي تشارك الموحدين في أنسابهم وآرائهم تهادهم في الفروع والأصول، فلا غرو إذا ما شق انحلال الدولة الفاطمية بالشكل الذي انحلت به على السلطان يعقوب المنصور صاحب المغرب وملك الموحدين. ونستطيع أيضا أن نرجح توقف الموحدين عن المشاركة في جهاد الصليبيين الذين كانوا يغزون الشرق في ذلك العهد إلى إمكانياتهم العسكرية البرية والبحرية، فقد كانت محدودة ولا تستوعبها جهودهم لإرساء حكمهم في المغرب والأندلس [106].

ورغم ما يلاحظ من انتقادات للدور الديني لحركة الموحدين فإنها قد حققت الوحدة السياسية لبلاد المغرب والأندلس، ويظهر الجانب الإيجابي لهذه الدولة من شهادة صاحب معالم الإيمان الذي يقول: "ثم انقضت هذه الطبقة بعد الخمسمائة سنة و لم يبق من له اعتناء بالتاريخ لاستيلاء مفسدي الأعراب على إفريقية وتخريبها وإجلاء أهلها عنها إلى سائر بلاد المسلمين وذهاب الشرائع بعدم من ينصرها من الملوك إلى أن مَنَّ الله على الناس بظهور دولة الموحدين فوضحت بها معالم الدين وسبل الحق ورسوم الشرع بظهورها بإفريقية العلماء والصلحاء و ذلك في سنة الأخماس (أي سنة 555هـ) [107].

الخاتمة: مما سبق يمكن الخروج بالاستنتاجات التالية:

أولا–قد كانت شخصية ابن تومرت شخصية فذة، متميزة المعالم تتقوم بخصائص ذاتية، نسجتها عوامل حياته الثرية بالأحداث، وتضافرت في بنائها الظروف التي تقلبت فيها تلك الحياة، فأسهمت بيئته الجبلية ببذر الجدية والحذر، وأسهمت رحلته المشرقية برصيده العلمي، ونضجه الفكري، وإيمانه العميق بالإصلاح، انطلاقا من الواقع المغربي السياسي والاجتماعي، ولّد له بذلك التفاعل خصالا قيادية أنضجتها التجربة في الدعوة للإصلاح [108].

ثانيا– لم يكن ابن تومرت؛ صاحب مدرسة فكرية تعرف به؛ لها فلسفتها، وأفكارها، وقضاياها، التي تطرحها وتناقشها، وتعمل على تثبيتها ونشرها. و لم يكن ابن تومرت؛ رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط، بل انه – في الحقيقة – جمع في شخصه؛ بين رجل الدين، ورجل العلم، ورجل السياسة. فهو في الدين: ذهب في عبادته وتقشفه، إلى درجة التصوف. وهو في العلم: متبحر، ودفع بالعلم، وشجع العلماء. ويعتبر رجل سياسة: لأنه هو الأول، والوحيد، الذي خطط لقيام دولة الموحدين، ومهد لها سبيل القيام، ووضع لها الأسس التي قامت عليها [109].

ثالثا–كما كان يهدف ابن تومرت إلى تكوين الفرد في جماعته تكوينا ذاتيا يفضي إلى صفاء الروح، بتحويل الهم من الدنيا إلى الآخرة، وتكوين الفرد ذاتيا، لان الحياة الاجتماعية تستلزم

بعدا تربويا، وقد تجاوز ذلك إلى المجتمع من خلال تبيان قواعد التآخي والتعاون واحترام الممتلكات وإغاثة المظلوم. لقد كان المهدي يولي الجانب التربوي في حركته أهمية بالغة، ذلك انه وضع نصب عينيه إنشاء مجتمع جديد انطلاقا من الفرد والجماعة التي أحاطت به والتزمت بدعوته، ومجتمع يتفادى تلك العيوب التي تفشت في المجتمع خلال عصره (110).

رابعا–إن ابن تومرت كان رجلا قد طغى عليه الهاجس السياسي، وحركة هدفها القضاء على دولة المرابطين وإقامة دولة جديدة، فقد سلك هذا الرجل أكثر من سبيل ويتخذ أكثر من طريق لإقناع الناس بدعواه وبمشروعه السياسي الجديد، ولذا نراه يوظف ويردد أفكار أشعرية في علم الاعتقاد والتوحيد وأحيان أفكار المعتزلة وأخرى شيعية كقوله بعصمة الإمام (111).

خامسا– شن ابن تومرت، هجوماً نقدياً على حكام المرابطين، محاولاً فسخ ولاء القبائل الموالية للمرابطين، فسخاً نهائياً، وترسيخ ولائهم له، فكان يقول لأتباعه: (فكل من أطاعهم، فهو يعصي لله، وكل من أعانهم، فهو يعينهم على ظلمهم، في سفك دماء المسلمين, وأخذ أموالهم, فكل من أعانهم من القبائل, فادعوهم إلى التوبة والإنابة، وترك معونة – المجسمين، والمرتدين، والمعتدين – فإن قبلوا منكم ورجعوا، وأعانوكم على جهاد الكفرة، فخلوا سبيلهم، وهم إخوانكم في دين الله، وإن عاندوا الحق، وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد، فاقتلوهم حيث وجدتموهم) (112).

سادسا–يعتبر المهدي بن تومرت ليس فقط مؤسس دولة إصلاحية في المغرب الإسلامي بل أعطى للمغرب والأندلس مذهبا تشريعيا دينيا دعا إليه أولا، ثم بانتصاراته ثانية فرضه على تلك البلاد التي لم تكن تعرف سوى المذهب المالكي، وهذا المذهب يظهر خصوصا في مؤلفات المهدي المكتوبة بلغة أهل مصمودة.

سابعا–تناقلت العديد من المصادر الكثير من العلوم الباطنية التي نسبت إلى المهدي ومما تذكره هذه المصادر أن ابن تومرت اطلع على كتاب يسمى "الجفر" وأنه لما أيقن بدنو أجله استدعى عبد المؤمن وأوصاه بما أحب وأعطاه كتاب "الجفر"؛ ومن العلوم الباطنية التي نسبت إليه أيضا

"خط الرمل" (أخبار الغيب ومستقبل الأحداث) الذي برع فيه حتى وصف بأنه أوحد زمانه في خط الرمل.

ونلتمس نزعة شيعية تبدو جلية من خلال الثالوث الموحدي المتمثل في المهدوية والإمامة والعصمة؛ فالمهدوية راودته منذ بواكير دعوته وكان يلوح بها لأصحابه ويقول: " إنما الله واحد والرسول حق والمهدي حق والخليفة حق " مما شوق أتباعه إلى جمع الأحاديث عنه فلما أقرت نفوسهم ذلك ادعى أنه المهدي " (113)، وذهنية سكان المغرب الإسلامي المتعلقة بالخوارق والغيبيات ساعدت على نجاح فكرة المهدوية والعصمة التي أشاعها ابن تومرت (114)، أما الإمامة فيعتبرها ابن تومرت ركناً من أركان الدين.

الهوامش:

(1) محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، (جزءان)، (أطروحة دكتوراه دولة منشورة)، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004/2003م، ص415.

(2) عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت (الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري)، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، 1995، ص 39.

(3) المرجع نفسه، ص43-44.

(4) المرجع نفسه، ص44.

(5) المرجع نفسه، ص44-45.

(6) المرجع نفسه، ص47-48

(7) المرجع نفسه، ص48.

(8) المرجع نفسه، ص48.

(9) المرجع نفسه، ص48-49.

(10) المرجع نفسه، ص49.

(11) المرجع نفسه، ص50-51.

(12) المرجع نفسه، ص51.

(13) المرجع نفسه، ص53-54.

(14) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دت، ص 132. بلغيث، المرجع السابق، ص159.

(15) النجار، تجربة الإصلاح، ص81.

(16) المرجع نفسه، ص81-82.

(17) المرجع نفسه، ص82.

(18) المرجع نفسه، ص82-83.

(19) المرجع نفسه، ص82-83.

(20) المرجع نفسه، ص88.

(21) بلغيث، الحياة الفكرية، ص428.

(22) النجار، تجربة الإصلاح، ص72-73.

(23) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ج6، ص266.

(24) البيدق، اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1978، ص29. الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،1981، ص252). حروز عبد الغني، المذهب الأشعري في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 5-7هـ/11-13م، رالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف، أ.د. مبارك بوطارن، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2016-2017م، ص288.

(25) ابن القطان، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحق: محمد علي مكي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص72. ابن ابي زرع، روض القرطاس، دار المنصور، الرباط،1972، ج2، ص219. حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص288.

(26) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحق: عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص127.

(27) ابن خلدون، العبر ج6، ص267.

(28) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ،1968، ص 139.

(29) المراكشي، المصدر السابق، ص127.

(30) هي إحدى طرق تحمل الحديث وهو أخذ طالب الحديث عن الشيخ وتلقيه منه بأحدي الطرق التحمل وهي السماع من لفظ الشيخ، والقراءة على الشيخ، الإجازة، والمناولة، والكتابة، والإعلام، والوصية، والوجادة. انظر: الخير آبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه، دار النفائس، عمان الأردن,2009 , ص33.

(31) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص288.

(32) المرجع نفسه، ص288.

(33) المرجع نفسه، ص290.

(34) المرجع نفسه، ص289.

(35) المرجع نفسه، ص290.

(36) المرجع نفسه، ص298.

(37) محمد الصلابي، دولة الموحدين، مكتبة الإيمان، المنصورة ،2004، ص24.

(38) النجار، تجربة الإصلاح، ص58.

(39) المرجع نفسه، ص59.

(40) المرجع نفسه، ص59.

(41) المرجع نفسه، ص60

(42) المرجع نفسه، ص62.

(43) المرجع نفسه، ص62-63.

(44) المرجع نفسه، ص63.

(45) المرجع نفسه، ص63-64.

(46) المرجع نفسه، ص64.

(47) المرجع نفسه، ص64.

(48) المرجع نفسه، ص65.

(49) المرجع نفسه، ص65.

(50) المرجع نفسه، ص65.

(51) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص295.

(52) عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت (حياته وآراؤه الاجتماعية وأثره بالمغرب)، ط1، القاهرة، 1983، ص145.

(53) المرجع نفسه، ص146.

(54) المرجع نفسه، 149-152.

(55) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص298.

(56) النجار، المهدي بن تومرت، ص152.

(57) المرجع نفسه، ص153.

(58) المرجع نفسه، ص156-157.

(59) النجار، تجربة الإصلاح، ص77.

(60) المرجع نفسه، ص35.

(61) المرجع نفسه، ص114.

(62) المرجع نفسه، ص115.

(63) المرجع نفسه، ص290.

(64) عبد الوهاب سنان الشواري، الموحدون في عهد المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي، فكر وعقيدة وسلطة، نقلا: بتاريخ 2014/11/05

(65) ابن القطان: نظم الجمان، مرجع سابق، ص29.

(66) المصدر نفسه، ص132.

(67) مغزاوي مصطفى، العامل السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه ،5هـ_11م/8هـ_14م، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، إشراف أ.د.: خالد كبير ،1429هـ_2008م، ص 25.

(68) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص293.

(69) المرجع نفسه، ص293.

(70) المرجع نفسه، ص294.

(71) المرجع نفسه، ص294.

(72) بلغيث، الحياة الفكرية، ص116.

(73) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص295.

(74) بلغيث، المرجع السابق، ص116.

(75) عن التجسيم وآيات الصفات. انظر: بالغيث، المرجع السابق، ص242-243

(76) محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، تحق: عمار طالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1985 ص262. بلغيث، المرجع السابق، ص241-242.

(77) الصلابي، المرجع السابق، ص80.

(78) بلغيث، المرجع السابق، 164.

(79) خليل السامرائي تاريخ المغرب العربي، ص287. نقلا عن الشواري، المرجع السابق.

(80) الصلابي، المرجع السابق، ص81.

(81) النجار، تجربة الإصلاح، ص89.

(82) المرجع نفسه، ص101.

(83) المرجع نفسه، ص101.

(84) المرجع نفسه، ص101.

(85) المرجع نفسه، 102.

(86) المرجع نفسه، ص102-103.

(87) المرجع نفسه، ص89.

(88) المرجع نفسه، ص115.

(89) المرجع نفسه، ص116.

(90) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص295.

(91) بلغيث، الحياة الفكرية، ص260-261.ألفرد بل، الفرق الإسلامية، ص260.

(92) المذكرة 295-296.

(93) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص296.

(94) المرجع نفسه، ص296.

(95) الشواري، المرجع السابق.

(96) الصلابي، المرجع السابق، ص82.

(97) الشواري، المرجع السابق.

(98) الصلابي، المرجع السابق، ص116.

(99) المرجع نفسه، ص116.

(100) محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ،1999، ص54.

(101) ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس ,1329هـ، ص59.

(102) بالغيث، الحياة الفكرية، ص262.

(103) المرجع نفسه، ص263.

(104) ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، لبنان, 1964, ص، ص، 65 66.

(105) بلغيث، المرجع السابق، ص108.

(106) المرجع نفسه، ص262-263.

(107) المرجع نفسه، ص263.

(108) النجار، تجربة الإصلاح، ص72.

(109) الصلابي، المرجع السابق، ص29.

(110) النجار، تجربة الإصلاح، ص117.

(111) حروز عبد الغني، المرجع السابق، ص291-292.

(112) الصلابي، المرجع السابق، ص80.

(113) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 251.

(114) بن خلدون، العبر، ج6، ص 138.